صوت قدم من السماء وعاد إليها سريعا

احتفاء عربي بذكرى ميلاد أميرة مطربة

أسمهان.. المرأة التي ظلمها الذكور سيرة وفنا ونقدا تلفزيونيا

ظلت المطربة السورية أسمهان رغم رحيلها المبكّر أيقونة لن تتكرّر، بصوتها السوبرانو الرخيم، وجمالها الأرستقراطي الساحر، وهي الأميرة سليلة الأمراء، وخاصة برحيلها الغامض، الذي جعل المخرج التونسي شوقي الماجري يوثّق سيرتها ومسيرتها عبر مسلسل حمل اسمها. أسمهان الصوت والمسلسل استعادهما عشاق الفنانة الراحلة في ذكرى ميلادها الـ108 الذي تم الاحتفاء به على نطاق واسع في الأيام القليلة الماضية.

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

منذ أيام قليلة، احتفلت العديد من الجمعيات الأهلية بالقاهرة ودمشق وبيروت وغيرها من العواصم العربية بذكرى ميلاد المطربة السورية أسمهان (25 نوفمبر 14/1912 يوليو 1944)، والتي عرفت ولادتها الثانية حين دخلت في العام 1931 عالم الغناء من أوسع أبوابه مع تسجيلها قصيدة "أين الليالي" من تأليف إسماعيل صبري وألحان محمد القصبجي، وطقطوقة "يا نار فؤادي" من تأليف يوسف بدروس وألحان فريد غصن، وبحلول السنة التالية اختفى اسمها آمال الأطرش من الصحافة والفن لتخلّد باسمها الفني الذي اختاره الملحن داود حسني.

> للجمال فئة قليلة من الحرّاس والسّدنة والمريدين، ولكن للقبح فئة كثيرة من الغوغاء والانكشاريين والمرتزقة

أسمهان صوت قدم من السماء وسكن حنجرة أميرة ثمّ عاد إلى السماء بعد رحلة حياة تشبه المنام.. هكذا تصنع الأقدار "دراماها" الخاصة، وتقول للكتّاب في سخرية واضحة: آتوني بمثلها إن كنتم من الصادقين.

أعترف أنّ التلفزيون هزمني هذه المرّة وجعلني أجالسه وأتابع مسلسلا عن أسمهان لا لأنّ الأخيرة معشوقتي الأبديّة فحسب، بل لأنّ ما شاهدته يرتقي إلى الأناقة في كلّ شيء: نصّا وأداءً وتصويرا وألوانا وإضاءة ولغة إخراجية تنظّف العين من كلّ ما يمكن أن يلحق بها من تلوّث بصريّ طيلة هذا الكرنفال التلفزيوني.

أتحدّث عن واحد من أروع ما قدّم المخرج التونسي الراحل شوقي الماجري، وهو مسلسل "أسمهان"، وكان من بطولة سولاف فواخرجي، فراس إبراهيم، أحمد شاكر، عابد فهد، فتوح أحمد وأحمد سلامة، ومن تأليف قمر الزمان علوش.

نقد هلامي

دار المسلسل حول قصة حياة المطربة أسمهان الحقيقية وانتقالها من بيروت إلى القاهرة للعمل كمطربة وممثلة، ليلمع اسمها بجوار شقيقها فريد الأطرش وتطرّق المسلسل إلى علاقتها ببعض الفنانين الذين عاصروها وحتى وفاتها الغامضة.

كنت ولا زلت أعتقد أنّ قدر الأعمال الرفيعة في غالب الأزمان هو الجحود والنكران، وأنّ مجمل صنّاعها لا يسلمون من الأذى حتّى يُراق على جوانبهم الانتقاد اللاّذع والتهجّم المجاني.

دع عنك التشاؤم – قلت لنفسي – وتخلّص من هذا الحكم الجائر في حقّ المنشغلين بالمتابعات النقديّة والقراءات الفنيّة، فلقد تطوّرت الذائقة وأصبح المبدع يستمع ويستمتع بكلمة "أحسنت" قبل أن توضع القطنتان في أذنيه ويرحل إلى الأبد.

لم أكد أنهي هذا التقريع الذاتي في حقّ نفسي حتّى فتحت جريدة وقرأت المانشيت التالية بخطّ نافر وعريض "مسلسل أسمهان سقطة موجعة للدراما السورية".. وطفق الناقد العتيد يعدّد "عيوبا" في العمل مستخدما "الحواضر" والكليشيهات من تلك المصطلحات والعبارات التي يأتي بها من النمليّة النقديّة من نوع: حركة الكاميرا سيئة، الإيقاع بطيء، الأداء نمطي ومترهّل، النص مفكّك، الإخراج ضعيف.. وهلمّ جرّا من توصيفات هلاميّة، شبه نقديّة، عديمة المسك والتي تمنّيت لو قالها على أحد المنابر أمام متخصّص، فيطلب منه شرح ذلك علنا والبرهنة على ما كتبه بالتفصيل الدقيق والممنهج والمملّ.. يعني هات، اشرح لي لو سمحت.

لماذا هذه الاستباحة؟!.. هل ينبغي التذكير بأنّ النقد أمانة أخلاقيّة ومعرفيّة وإبداع واحتراف وتخصّص، بأيّ حقّ يجرأ الواحد على التعرّض لعمل من الواضح أنّ كلّ مشهد فيه درس بتأنّ وعناية فائقين، بأيّ حقّ تصادر آراء المشاهدين من غير الذين أخذتهم العزّة بالتخلّف؟!

أقلّ ما يقال في مسلسل "أسمهان" بأنّه عمل مسؤول وقد كتبت عنه وكالة الأنباء الفرنسية في القاهرة بأنّه قفزة نوعيّة في صناعة الدراما السورية والعربية عموما.

لست منتجا لهذا المسلسل ولا طرفا في صناعته كي أدافع عنه متحمّسا أمام نقد جارح، ولكنّي أعتبر نفسي معنيّا بأيّ ضوء يهزم ظلام القبح ويتصدّى لزحف التفاهة والتغزّل بالأوهام.

قد يكون كاتب هذا المقال النقدي – الذي لا أعرفه شخصيّا ولا يحضرني اسمه – ضحيّة لذائقة كرّستها أعمال رديئة فباتت مقياسا لقراءة ما شذّ من أعمال تحاول الاختلاف وتسعى لاحترام المتلقّي دون ثرثرة بصرية وحركية ولفظية، دون تشويق بدائي يحاكي الحكواتي في سير لم توجد إلاّ في مخيّلاتنا المهزومة، ربّما فات بعض ممتهني النقد الفنّي أنّ العمل الناجح هو ذاك الذي لا تنتبه فيه لعنصر فنّي يعلو صوته دون غيره على بقية العناصر كأن تبدي إعجابك بحركة الكاميرا وحدها أو بالألوان وحدها أو بالنص وحده.. الخ.

حرّاس الجمال

للجمال فئة قليلة من الحرّاس والسّدنة والمريدين، ولكن للقبح فئة كثيرة من الغوغاء والانكشاريين والقنّاصة والمرتزقة، أمّا المعركة بين الطرفين فكرّ وفرّ وهي حامية الوطيس منذ بدء الخليقة، ولن تحطّ أوزارها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الحديث عن أسمهان يحيلنا إلى التوقف عند ثقافة الإلغاء القسري أو التثبيت القسري التي تتمتّع بها الذهنيّة السائدة منذ زمن ضارب في القدم، والتي عانت منها أسمهان نفسها قبل أن يبلّلنا صوتها في مواسم الجفاف والتصحّر وقبل أن تغرّد الطيور حبّا واحتفاء بمعجزة اسمها الحياة، ففي مقارنة ذكية بين شخصيتها وبين شخصية أم كلثوم، ترى شريفة زهور في كتابها "أسرار أسمهان.. المرأة، الحرب، الغناء"، أن صاحبة أغنية "يا حبيبي تعال الحقني" خضعت لإملاءات الرجال من أشقاء ومقرّبين في حياتها، وأنها لم تتخلّص من تدخلاتهم، خلافا لأم كلثوم التي فرضت نفسها على عائلتها ومنعتها من الاقتراب من شؤونها الشخصية.

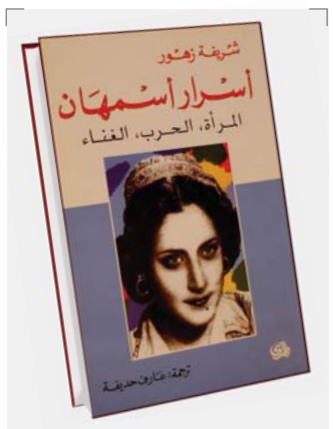

> شريفة زهور كشفت في كتابها أن أسمهان خضعت لتدخلات الرجال في حياتها، وأنها لم تتمكّن من التخلّص من إملاءاتهم

شكرا لـ"أسمهان" صوتا وسيرة ومسلسلا، رغم قولهم بأنّ الأميرات والأمراء ينطربون ولا يطربون.. شكرا لعائلتها الكريمة التي أنهت كلّ لغط قد يثار حول خصوصياتها وقبلت بـ"آمال" ملكا لكلّ عشّاق الجمال والنّقاء وموضوعا راقيا من مواضيع الدراما الراقية نحارب بها أزمنة التسطيح والتهريج والفجاجة.

رحلت الأميرة المنكسرة وتركت روائع شارك في صنعها "رجال حقيقيون" (وليسوا مدمرين كأولئك الذين عرفتهم في حياتها)، وذلك عبر أغنيات لن تنسى، مثل "عذابي في هواك" و"عاهدني يا قلبي" من ألحان زكريا أحمد، و"مجنون ليلى" من ألحان محمد عبدالوهاب، و"يا لعينيك" من ألحان رياض السنباطي، و"فرّق ما بينا الزمان" من ألحان محمد القصبجي، و"ياللي هواك" و"كان لي أمل" من ألحان فريد الأطرش.

مسلسل «أسمهان» أنصف الراحلة ولم ينصفه النقاد

فنان لبناني يسرد بالرقص تجاربه الأليمة وأوجاع وطنه الجريح

على وقع أصوات الألم التي استعاض بها عن الموسيقى، حوّل الراقص اللبناني ألكسندر بوليكيفيتش قصّة تعرّضه للضرب وتوقيفه خلال موجة الاحتجاجات التي شهدها لبنان أخيرا، إلى عرض فني حمل عنوان "عليهم"، عبّر من خلاله عن فعل المقاومة ضد الظلم والبشاعة، كما استعرض فيه أزمات وطنه المتعاقبة منذ ثورة 17 أكتوبر 2019 وحتى انفجار مرفأ بيروت في الرابع من أغسطس الماضي.

بيروت – يسترجع الكوريغرافي اللبناني ألكسندر بوليكيفيتش من خلال عرضه الراقص "عليهم"، الذي يواصل تقديمه في قبو كنيسة ببيروت حتى السادس عشر من ديسمبر الجاري، تجربة مشاركته النشطة في التحركات الاحتجاجية، التي شهدها لبنان على مدى أشهر منذ أواخر السنة الماضية، مستعيدا قصة توقيفه على يد الشرطة مطلع العام الجاري.

ويروي مصمم الرقص ذو الأصول الكرواتية بجسمه وبلغة راقصة معاصرة الاعتداء الجسدي، الذي تعرّض له إثر التوقيف. وعلى مدى أربعين دقيقة يرقص بشغف ناقلا الجمهور إلى تجاربه "الأليمة" في الأشهر الماضية، بينها فقدان والده وصولا إلى انفجار مرفأ بيروت، الذي أدّى إلى مصرع أكثر من مئتي شخص والآلاف من الجرحى، علاوة على انهيار كبير في البنى التحتية.

ويتذكّر بوليكيفيتش أنه كان خارج لبنان لدى اندلاع الاحتجاجات وعاد إليه بعد ثلاثة أيام من بدايتها. ويقول "رأيت في الثورة الأمل وإمكان التغيير، وأمضيت ستة أشهر في الشارع"، مشاركا في التحركات.

وعن اختيار "عليهم" عنوانا لعرضه الراقص، قال الفنان البالغ 38 عاما، "أرى فيه فعل مقاومة". وهو يعتبر أن "الثورة الناجحة تبدأ بالذات، وتكون أيضا على المعتقدات وعلى الرواسب، وعلى الظلم والحكام والموت والبشاعة".

وفي 17 أكتوبر 2019، شكّلت محاولة الحكومة فرض رسم مالي على الاتصالات المجانية عبر التطبيقات المحمولة، الشرارة الأولى لسلسلة تحركات عمّت المناطق اللبنانية على مدى أشهر، وشارك فيها مئات الآلاف من الأشخاص رفضا للطبقة السياسية، التي يتهمونها بالفساد ويحمّلونها مسؤولية تردي الوضع الاقتصادي في البلاد التي تشهد انهيارا ماليا غير مسبوق.

وشارك عدد من الممثلين والمخرجين والمغنّين والموسيقيين وسواهم من الفنانين في الاحتجاجات، وساهموا في تنظيم التحركات وأدلوا بمواقف داعمة لها ومنتقدة للحكام والطبقة السياسية. ونددت جمعيات غير حكومية بتوقيف عدد منهم لفترات قصيرة خلال التظاهرات.

وقد أوقف بوليكيفيتش في 14 يناير لفترة وجيزة خلال مشاركته بتحركات أمام مصرف لبنان المركزي رفضا للسياسات المالية في البلاد، تخللتها أعمال شغب وتحطيم واجهات وصرّافات آلية في عدد من المصارف.

ويصف الفنان توقيفه بأنه "مصادفة"، موضحا "لم يستطع رجال الأمن توقيف المشاغبين، فقبضوا عليّ. كنت أقف جانبا، فسحبوني من شعري وأوسعني خمسة أو ستة عناصر ضربا".

ويتابع "أحدهم ضربني على وجهي، فيما ضربني اثنان على ظهري وآخران على قدميّ، ثم اقتادوني إلى التحقيق إلى أن تم إطلاق سراحي فجر اليوم التالي".

وبالرقص، دافع بوليكيفيتش عن نفسه. لم يقاوم رجال الأمن، على ما يؤكّد، لكنه اعتمد "ما يسمى الرقص الاتصالي أي الالتصاق بالمعتدي ومحاولة التماشي مع طاقته". ويضيف "الرقص أنقذني".

وبالرقص أيضا، يستعيد الفنان هذه التجربة في عرض موزّع على أربع لوحات مترابطة.

في الأولى، يخلع الراقص الملابس التي كان يرتديها خلال مشاركته في التظاهرات. وبأنينه وحركاته، يعبّر عن الخوف والألم، سواء بظهره المنحني أو بقدميه المرتجفتين أو بيديه المتقوقعتين، اللتين ما يلبث أن يفتحهما تدريجيا وبتقنية عالية ليبدو مصلوبا، مسترجعا مشهد ضربه وتوقيفه. وشاء أن تكون السينوغرافيا فقيرة، إذ تتوسّط المسرح خزانة خشبية، بدت كأنها زنزانة أو حتى نعش.

وفي داخل الخزانة، يدندن في اللوحة الثانية، موسيقى كان يحبها والده المتوفى حديثا، يثور تارة على الموت والفراق ثم يهدأ، وبجسمه يصدر أصواتا تعوّض غياب الموسيقى، ثم يخرج من الخزانة كالطائر، ويدور حولها في اللوحة الثالثة العديد من المرات، وحول نفسه، كالدراويش، بحثا عن خلاص.

> على مدى أربعين دقيقة يستعرض الكوريغرافي اللبناني بالرقص تجاربه الأليمة وأوجاع وطنه في الأشهر الماضية

وفي اللوحة الرابعة تتحوّل الخزانة منصة للرقص، يعتليها بوليكيفيتش واضعا القناع الذي كان يستخدمه لاتقاء القنابل المسيلة للدموع، يخبط برجليه تعبيرا عن الرفض، مستعيدا بيديه حركات المحتجين في الساحات.

ولم يستخدم الراقص موسيقى ومحسنات بصرية بل فضّل التركيز على مضمون العرض الإنساني وأبعاده. وعن ذلك يقول إنه يقدّم "رقصا بلديا بمقاربة معاصرة". ويضيف "الحركة شرقية، لكنني أجرّد الرقص الشرقي من كليشيهاته".

واختار بوليكيفيتش إقامة عرضه في سرداب كنيسة القديس يوسف في بيروت الواقعة في أحد الأحياء، التي دمّر أجزاء كبيرة منها انفجار الرابع من أغسطس في مرفأ بيروت.

ويقع قبو الكنيسة العتيق، في حيّ تراثي، على أطراف منطقة الأشرفيّة. وخلال العقد الماضي، احتضن الفضاء ذو الجدران الحجرية، حفلات موسيقى كلاسيكية، ومعارض تشكيلية، وسهرات إنشاد وترنيم.

وخلّف انفجار مرفأ بيروت، أضرارا بالغة في الشارع، ولا تزال أعمال الترميم مستمرّة داخل الكنيسة، ولم تتعاف بيروت بعد من الكارثة، فلا تزال في الأحياء المجاورة، آثار الدمار واضحة.

ويبرّر اختياره تقديم العرض بسروال رقص قصير قائلا "في الرابع من أغسطس دمّر انفجار مرفأ بيروت منزلي. لقد خسرت كل شيء، ولم يبق لي سوى جسمي".

ويقول المسؤول عن الكنيسة الأب غبريال خيرالله اليسوعي "أردت أن تكون الكنيسة فسحة أمل بعد انفجار المرفأ، وجمال الفن مصدر للأمل. نستضيف فنانا يعبّر برقصه عن التعب الذي نعيشه". ويضيف "الرقص مقدّس ورمزي، فضلا عن أن رقص بوليكيفيتش محتشم".

وكان بوليكيفيتش الذي هاجرت عائلته الكرواتية إلى لبنان في القرن التاسع عشر، أثبت حضوره كراقص بلدي ذكر بعدما قدّم مجموعة من الأعمال الفردية منها "محاولة أولى" (2009) و"تجوال" (2011) و"إلغاء" (2013) و"بلدي يا واد" (2015).